

مُوسَى وَالْعَلِيْقَةُ الْمُتَقِدَّةُ
المحاضرة ٧: أهيه: كينونة الله
أ.ر. سي. سزول

سَنَتَابِعُ دِرَاسَتَنَا لِاخْتِبَارِ مُوسَى فِي بَرِّيَّةِ مَدْيَانَ، حِينَ تَقَابَلَ مَعَ اللَّهِ عِنْدَ الْعَلِيْقَةِ الْمُتَقِدَّةِ فَأَعْلَنَ لَهُ اللَّهُ عَنْ نَفْسِهِ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ عَادِيَّةٍ. سَبَقَ أَنْ رَأَيْنَا بَعْضَ مَا يُمَكِّنُ اسْتِنْتَاجَهُ مِمَّا أَعْلَنَهُ اللَّهُ لِمُوسَى خِلَالَ ذَلِكَ الْحَدِيثِ الْوَجِيزِ. لَكِنِّي أَوْدُ أَنْ أَدْرُسَ بِشَكْلِ أَعْمَقٍ فِي هَذِهِ الْمُحَاضَرَةِ مَعْنَى الْأَسْمِ الَّذِي يُعْلِنُ اللَّهُ عَنْ نَفْسِهِ مِنْ خِلَالِهِ، حِينَ يَدْعُو نَفْسَهُ بِبَسَاطَةٍ "أَنَا هُوَ الَّذِي هُوَ".

إِذَا، فَلَنَرْجِعُ إِلَى ذَلِكَ الْجُزْءِ مِنَ النَّصِّ، حَيْثُ نَقَرْنَا فِي الْأَصْحَاحِ الثَّلَاثِ مِنْ سَفَرِ الْخُرُوجِ وَالآيَةِ الثَّلَاثَةِ عَشْرَةَ "فَقَالَ مُوسَى لِلَّهِ: "هَا أَنَا آتِي إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَقُولُ لَهُمْ: إِلَهَ آبَائِكُمْ أُرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ. فَإِذَا قَالُوا لِي: مَا اسْمُهُ؟ فَمَاذَا أَقُولُ لَهُمْ؟" فَقَالَ اللَّهُ لِمُوسَى: "أَهِيهِ الَّذِي أَهِيَهُ". وَقَالَ: "هَكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَهِيَهُ أُرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ". وَقَالَ اللَّهُ أَيْضًا لِمُوسَى: "هَكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: يَهُوهُ إِلَهَ آبَائِكُمْ، إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهَ إِسْحَاقَ وَإِلَهَ يَعْقُوبَ أُرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ. هَذَا اسْمِي إِلَى الْأَبَدِ وَهَذَا ذِكْرِي إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ".

حِينَ يَقْرَأُ بَعْضُ النُّقَادِ هَذِهِ الْقِصَّةَ وَيَرَوْنَ أَنَّ مُوسَى طَلَبَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَكْشِفَ لَهُ اسْمَهُ، وَأَنَّ اللَّهَ أَجَابَهُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ الْغَرِيبَةِ وَالْعَامِضَةِ قَائِلًا: "أَنَا هُوَ الَّذِي هُوَ"، يَقُولُ بَعْضُ النُّقَادِ إِنَّ مَا يَفْعَلُهُ اللَّهُ هُنَا هُوَ أَسَاسًا رَفُضٌ لِلْكَشْفِ عَنِ اسْمِهِ، وَالْمَقْصُودُ بِهِ: "لَا شَأْنَ لَكَ فِي مَعْرِفَةِ اسْمِي، اسْمِي "أَنَا هُوَ الَّذِي هُوَ". وَتَوَقَّفَ عَنِ التَّفْكِيرِ فِي الْأَمْرِ". لَكِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ السِّيَاقَ الَّذِي يُسَمِّي فِيهِ اللَّهُ نَفْسَهُ "أَنَا هُوَ الَّذِي هُوَ" لَا يَسْمَحُ بِهَذَا التَّفْسِيرِ التَّقْيِدي، لِأَنَّ اللَّهَ يُوضِّحُ أَنَّهُ لَا يَرُفُضُ إِعْلَانَ اسْمِهِ، بَلْ إِنَّهُ يَكْشِفُ اسْمَهُ لِمُوسَى. وَهُوَ الْأَسْمُ الَّذِي سَيَكُونُ اسْمُهُ إِلَى الْأَبَدِ لِجَمِيعِ الْأَجْيَالِ. وَسَيَكُونُ اسْمُهُ التَّذْكَارِي.

وَرَأَيْنَا فِي وَقْتِ سَابِقٍ ضَمَّنَ دِرَاسَتَنَا لِهَذِهِ الْحَادِثَةِ، أَنَّهُ فِي التَّقَالِيدِ الْعِبْرَانِيَّةِ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ كَانَ يَتِمُّ إِطْلَاقُ أَسْمَاءِ عَلَى الْأَشْخَاصِ لِكْشِفِ شَيْءٍ مَا عَنْ هُوِيَّتِهِمْ، حَتَّى إِنَّ مُوسَى، أُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمُ "مُوسَى" لِأَنَّهُ انْتَشَلَ مِنَ الْمَاءِ. وَنَذْكُرُ أَنَّ يَعْقُوبَ صَارَ اسْمُهُ "إِسْرَائِيلَ" لِأَنَّهُ تَصَارَعَ مَعَ اللَّهِ وَنَاضَلَ. إِذَا، فِي جَمِيعِ أَسْفَارِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ نَرَى أَنَّ أَسْمَاءَ الْأَفْرَادِ تُخَيَّرْنَا أَمْرًا مُهِمًّا عَنْ كِيَانِهِمْ أَوْ شَخْصِيَّتِهِمْ. وَلَا يُوجَدُ أَيُّ مَرَجِعٍ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ يَتَجَلَّى فِيهِ الْأَمْرُ بِشَكْلِ أَعْمَقٍ مِمَّا يَفْعَلُ هُنَا. حَيْثُ أَعْلَنَ اللَّهُ عَنْ نَفْسِهِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ غَيْرِ الْعَادِيَّةِ، عَبْرَ الْقَوْلِ "أَنَا هُوَ الَّذِي هُوَ".

لَكِنْ قَبْلَ أَنْ أَعُوذَ فِي عُمُقِ هَذَا الْمَوْضُوعِ، دَعُونِي أَظْرِحُ هَذَا السُّؤَالَ الْبَسِيطَ: "لِمَاذَا تَعْبُدُونَ اللَّهَ؟ لِمَاذَا تَكُونُونَ لَهُ تَوْقِيرًا وَحَسَّ عِبَادَةٍ يَخْتَلِفُ عَنْ أَيِّ تَقْدِيرٍ تَكُونُهُ لِأَيِّ مَخْلُوقٍ بَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ؟" مِنَ السَّهْلِ عَلَيْنَا أَنْ نُحِبَّ اللَّهَ وَأَنْ نَكُونَ شَاكِرِينَ لَهُ، وَأَنْ نَعْبُدَهُ، نَظَرًا لِكُلِّ الْأُمُورِ الرَّائِعَةِ الَّتِي صَنَعَهَا فِي التَّارِيخِ، وَفِي تَارِيخِ حَيَاتِنَا لِأَجْلِ أَنْفُسِنَا. لَكِنِّي لَا أَعْتَقِدُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَكُونُ قَدِ ارْتَقَى إِلَى مُسْتَوَى الْعِبَادَةِ الْحَقِيقِيَّةِ إِذَا لَمْ يَبْدَأْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، لَا لِأَجْلِ مَا فَعَلَهُ، بَلْ لِأَجْلِ شَخْصِهِ بِكُلِّ جَلَالِهِ الْفَائِقِ، حِينَ نُنْذِرُكَ - كَمَا قَالَ اللاهوتيونَ فِي الْمَاضِي - أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْكَائِنُ الْأَكْثَرُ كَمَالًا.

اعْتَرَضْتُ قَلِيلًا عَلَى هَذَا التَّعْرِيفِ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْكَمَالِ دَرَجَاتٌ. وَإِنَّمَا أَرَادَ آبَاءُ الْكَنِيسَةِ لَفَتْ انْتِبَاهَنَا مِنْ خِلَالِ هَذَا التَّكْرَارِ الْمُتَعَمِّدِ، قَائِلِينَ إِنَّهُ الْكَائِنُ الْأَكْثَرُ كَمَالًا، لِئَلَّا نَسْتَخَفَّ بِأَهَمِّيَّةِ كَمَالِ اللَّهِ، كُلِّ مَا هُوَ عَلَيْهِ، صِفَاتُهُ كُلُّهَا، مَعْرِفَتُهُ الْكَلْبِيَّةُ، وَحُضُورُهُ الْكَلْبِيُّ، وَأَبْدِيَّتُهُ، وَبَسَاطَتُهُ، كُلُّ الصِّفَاتِ الَّتِي تَنْدَرِجُ ضِمْنَ إِطَارِ فَهْمِنَا لِلَّهِ هِيَ بِلا عَيْبٍ، وَلَا تَشُوبُهَا أَيُّ سَائِبَةٍ.

إِذَا الْآنَ فَلْتَطْرَحِ السُّؤَالَ الَّذِي كَانَ أَفْذَمَ سُؤَالَ طَرَحَهُ الْعُلَمَاءُ وَالْفَلَسَفَةُ فِي الْعُصُورِ الْقَدِيمَةِ. إِنَّهُ السُّؤَالَ الْأَكْثَرُ مَدْعَاةً لِلتَّفَكِيرِ، لَكِنَّهُ بَسِيطٌ فِي تَعْبِيرِهِ وَيُمْكِنُ لِأَيِّ شَخْصٍ أَنْ يَسْتَوْعِبَهُ. السُّؤَالَ هُوَ الْآتِي: "لِمَاذَا يُوجَدُ شَيْءٌ بَدَلًا مِنْ لَا شَيْءٍ؟ لِمَاذَا يُوجَدُ أَيُّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْكُونِ؟" إِنَّ كَاتِبَ الْمَزْمُورِ، وَبِدُونِ أَنْ يُدْرِكَ صَخَامَةَ الْمَجْرَاتِ وَمِلْيَارَاتِ النُّجُومِ الَّتِي نَسْمَعُ عَنْهَا عَلَى لِسَانِ عُلَمَاءِ الْفَلَكِ الْيَوْمِ، بِمِلْحَظَتِهِ الْمَجْرَدَةَ لِلْعَالَمِ مِنْ حَوْلِهِ نَظَرَ إِلَى النُّجُومِ وَقَالَ: "إِذْ أَرَى الْقَمَرَ وَالنُّجُومَ الَّتِي كَوْنَتْهَا أَجْدُ نَفْسِي مُجَبَّرًا عَلَى السُّؤَالِ: مَنْ هُوَ الْإِنْسَانُ حَتَّى تَذْكُرَهُ؟" حَتَّى مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِ الْإِنْسَانِ الْقَدِيمِ يَبْدُو أَنَّ صَخَامَةَ الْكُونِ بَهْرَتُهُ وَجَعَلَتْهُ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ تَامًا مَقَارَنَةً بِصَخَامَةِ الْوَاقِعِ كَمَا نَرَاهُ.

وَبِالطَّبَعِ، حِينَ قَالَ دَاوُدُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ أَدْنَى فِكْرَةٍ عَنْ مَدَى اتِّسَاعِ الْكُونِ، مِثْلَمَا نَفْتَقِرُ نَحْنُ أَيْضًا إِلَى فَهْمِ أَهَمِّيَّتِهِ فِعْلًا. أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ أَقْرَبَ كَوْكَبٍ إِلَيْنَا مِنْ بَيْنِ مِلْيَارَاتِ وَمِلْيَارَاتِ الْكَوَاكِبِ هُوَ الشَّمْسُ. وَتَبْعُدُ الشَّمْسُ عَنَّا مَسَافَةً ٩٣ ثَلَاثَةِ وَتِسْعِينَ مِليُونِ مِيلٍ. لَنْ أَتَوَسَّعَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ سَبْرُ عَوْرِهِ. لَكِنَّنَا مُرْعَمُونَ عَلَى طَرِحِ سُؤَالِ "لِمَاذَا؟ مَا سَبَبُ وُجُودِ هَذَا الْكُونِ؟ لِمَاذَا يُوجَدُ شَيْءٌ بَدَلًا مِنْ لَا شَيْءٍ؟ لِمَاذَا لَيْسَ الْكُونُ كُلُّهُ فُسْحَةً فَارِعَةً أَوْ حُفْرَةً سَوْدَاءَ لَا يُوجَدُ فِيهَا شَيْءٌ؟"

الْجَوَابُ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ سَهْلٌ فِعْلًا، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ بَسِيطًا جِدًّا وَوَاضِحًا جِدًّا لِدَرَجَةِ أَلَّا يُبَيِّرَ أَبَدًا أَيُّ نَوْعٍ مِنَ النِّقَاشِ أَوْ الْجَدَلِ. هَذَا الْجَوَابُ مَوْجُودٌ فِي الْآيَةِ الْأُولَى مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، حَيْثُ نَقَرْنَا: "فِي الْبَدْءِ... اللَّهُ... - سَابَدًا مِنْ هُنَا - فِي الْبَدْءِ... اللَّهُ... " ثُمَّ يُتَابِعُ قَائِلًا: "خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ". إِذَا، مَا هُوَ الْأَمْرُ الْإِيجَابِيُّ فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ؟ أَوَّلُ أَمْرٍ يَقُولُهُ لَنَا هُوَ الْآتِي: هُنَاكَ بَدَايَةٌ. فِي وَقْتِ مَا، كُلُّ تِلْكَ الْكَوَاكِبِ وَكُلُّ الْأَشْجَارِ

وَكُلُّ الْأَسْمَاكِ وَكُلُّ الْحَيَوَانَاتِ وَكُلُّ الْبَشَرِ لَمْ يَكُونُوا مَوْجُودِينَ إِطْلَاقًا، لِكُلِّ شَيْءٍ فِي الْكُونِ بَدَايَةٌ. إِنَّهُ يَبْدَأُ فِي لَحْظَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ. وَقَبْلَ ذَلِكَ، لَمْ يُوْجَدْ أَحَدٌ فِعْلِيًّا سِوَى اللَّهِ. لَيْسَ الْعَدَمُ، بَلِ اللَّهُ. لِأَنَّهُ فِي الْبَدْءِ كَانَ اللَّهُ مَوْجُودًا، وَكَانَتِ الْبَدَايَةُ بَعْدَ ذَلِكَ. لِأَنَّ هَذَا الْإِلَهَ الَّذِي لَيْسَتْ لَهُ بَدَايَةٌ، هَذَا الْإِلَهَ الْأَزَلِّيَّ، خَلَقَ كُلَّ مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي هَذَا الْعَالَمِ.

تَسْمَعُونَ دَائِمًا عَنِ التَّفْسِيرَاتِ وَالنِّقَاشَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِنَشْأَةِ الْكُونِ. وَكَثِيرًا مَا نَسْمَعُ بِنَظَرِيَّةِ الْانْفِجَارِ الْعَظِيمِ الْمُؤَدِّي إِلَى نَشْأَةِ الْكُونِ، الَّتِي تُبَيِّنُ كَيْفَ صَارَ الْكُونُ حَيَزَ الْوُجُودِ. إِنَّ خُلَاصَةَ بَسِيطَةٍ لِلْأَمْرِ تُبَيِّنُ لَنَا أَنَّهُ فِي لَحْظَةٍ زَمَنِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ—وَلَا أَفْصِدُ اللَّعَبَ عَلَى الْكَلَامِ—كُلُّ مَادَّةٍ وَكُلُّ طَاقَةٍ فِي هَذَا الْكُونِ الشَّاسِعِ كَانَتْ مَضْعُوطَةً فِي هَذِهِ النُّقْطَةِ الْبَالِغَةِ الدِّقَّةِ وَالْمُتَنَاهِيَةِ الصِّغَرِ، الَّتِي تُسَمَّى "نُقْطَةُ التَّفَرُّدِ". وَنُقْطَةُ التَّفَرُّدِ هَذِهِ كَانَتْ مُنَظَّمَةً تَمَامًا فِي هَذَا الْوَاقِعِ الْمَضْعُوطِ مُنْذُ الْأَزَلِّ. وَمُنْذُ الْأَزَلِّ هِيَ تَخَضَعُ مَنَهَجِيًّا لِقَانُونِ الْفُضُورِ الدَّائِيِّ. وَيُفِيدُ قَانُونُ الْفُضُورِ الدَّائِيِّ بِأَنَّ الْأَجْسَامَ الَّتِي فِي حَالَةِ سُكُونٍ تَمِيلُ إِلَى الْبَقَاءِ فِي حَالَةِ سُكُونٍ إِلَى أَنْ تَتِمَّ مُمَارَسَةُ قُوَّةٍ خَارِجِيَّةٍ عَلَيْهَا، وَالْأَجْسَامُ الْمُتَحَرِّكَةَ تَمِيلُ إِلَى الْبَقَاءِ مُتَحَرِّكَةً إِلَّا إِذَا تَمَّتْ مُمَارَسَةُ قُوَّةٍ خَارِجِيَّةٍ عَلَيْهَا.

لَكِنَّ الْعِلْمَانِيَّينَ، فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ يَقُولُونَ إِنَّ نَظَرِيَّتَهُمْ حَوْلَ نَشْأَةِ الْكُونِ تَرْتَفُضُ قَانُونِ الْفُضُورِ الدَّائِيِّ. لِأَنَّهُ مُنْذُ الْأَزَلِّ، بَقِيَتْ نُقْطَةُ التَّفَرُّدِ هَذِهِ بِحَالَتِهَا الْمُنَظَّمَةِ بِدُونِ ذَرَّةٍ تَحْوِيلٍ أَوْ تَغْيِيرٍ. وَبَعْدَ ظَهْرِ يَوْمِ الْخَمِيسِ، عِنْدَ السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ وَالرُّبْعِ، انْفَجَرَتْ. وَلَا يَزَالُ يَتِمُّ الْعَمَلُ عَلَى اكْتِشَافِ آثَارِ هَذَا الْانْفِجَارِ فِي رَحَابَةِ الْكُونِ، لِأَنَّهُ يَبْدُو أَنَّ الْكُونِ الْحَاضِرَ يَتَمَدَّدُ مُنْذُ ذَلِكَ الْانْفِجَارِ الْعَظِيمِ.

ذَاتَ مَرَّةٍ، كُنْتُ أَتَحَدَّثُ مَعَ كَارل سِيَجَانِ عَنِ الْأَمْرِ، فَقَالَ: "يُمْكِنُنَا الرُّجُوعُ إِلَى أَوَّلِ نَائُو ثَانِيَةِ قَبْلِ الْانْفِجَارِ الْعَظِيمِ، يُمْكِنُنَا الرُّجُوعُ إِلَيْهَا". فَقُلْتُ: "وَلِمَاذَا تَتَوَقَّفُ عِنْدَهَا؟" فَأَجَابَ: "لَا نَشْعُرُ بِالْحَاجَةِ إِلَى الرُّجُوعِ إِلَى مَا قَبْلَ ذَلِكَ". فَقُلْتُ: "مَا مِنْ مَسْأَلَةٍ أَكْثَرَ الْحَاحَا مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الْعُودَةِ إِلَى هُنَاكَ". إِذَا كُنْتُ عَالِمًا، مِنْ فَضْلِكَ، لَا بَدَّ لَكَ مِنْ أَنْ تَظْرَحَ سُؤَالَ: "لِمَاذَا حَدَثَ الْانْفِجَارُ الْعَظِيمُ؟ كَيْفَ حَدَثَ الْانْفِجَارُ الْعَظِيمُ؟ مَا الَّذِي كَانَ قَبْلَ الْانْفِجَارِ الْعَظِيمِ؟" مَا كَانَ قَبْلَ الْانْفِجَارِ الْعَظِيمِ هُوَ تَجَلُّ لِلَّذِي "كَانَ". لَا يُمْكِنُ لِلْغَيْتِنَا أَنْ تُؤَدِّيَ عَمَلَهَا بِدُونِ هَذَا الْفِعْلِ الْبَسِيطِ "كَانَ"، ذَلِكَ الْفِعْلُ، الْمَوْجُودُ فِي صُلْبِ أَسْمَاءِ اللَّهِ.

لَمْ يَقُلِ اللَّهُ لِمُوسَى "هَذَا هُوَ اسْمِي، اسْمِي هُوَ: فِي مَا مَضَى، أَنَا كُنْتُ، وَالآنَ، أَنَا كَائِنٌ، وَسَاطِلُ كَائِنًا فِي الْمُسْتَقْبَلِ لِأَنَّ لَدَيَّ مُسْتَقْبَلًا". هُوَ لَمْ يُعَرِّفْ عَنِ نَفْسِهِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، لَكِنَّهُ يُعَرِّفُ عَنِ نَفْسِهِ بِلُغَةٍ وَجُودِهِ السَّرْمَدِيِّ؛ "أَنَا هُوَ الَّذِي هُوَ". "أَنَا هُوَ" هُوَ تَشْخِيسٌ "لِلْكَائِنُوتَةِ". أَكْرَرُ، فِي الْعَالَمِ الْقَدِيمِ، عِنْدَمَا حَاوَلَ الْفَلَسَافَةُ أَنْ يَفْهَمُوا كَيْفَ صَارَ الْكُونُ حَيَزَ الْوُجُودِ وَكَيْفَ يُمْكِنُ فَهْمُ الْكُونِ بِطَرِيقَةٍ مَنْطِقِيَّةٍ، أَرَادَ أَفْلَاطُونُ إِعْطَاءَ تَفْسِيرٍ يَتِمَّاشَى مَعَ مَا تَمَّتْ مُلَاحَظَتُهُ،

أَيُّ أَنْكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَى جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي نَرَاهَا؛ الطُّيُورَ، وَالْأَشْجَارَ وَالصَّرَاصِيرَ، وَالرَّجْسَ، جَمِيعَ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ، كَيْفَ يُمَكِّنُنَا تَفْسِيرُ وُجُودِهَا مَعًا؟ كَيْفَ يُمَكِّنُ لِكُلِّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَنَوِّعَةِ أَنْ تَتَنَاسَبَ مَعًا ضَمْنَ إِطَارٍ مُتَرَابِطٍ مَنطِقِيًّا وَمُجَدِّ؟

قَالَ الْفَيْلسُوفُ بَارْمِينِيدِسُ: "بِشْكَلٍ أَسَاسِيٍّ، أَهْمُ أَمْرٍ يَجِبُ أَنْ نَفْهَمَهُ بَيْنَمَا نُحَاوِلُ دِرَاسَةَ الْوَاقِعِ هُوَ أَنَّ كُلَّ مَا هُوَ مَوْجُودٌ يَبْقَى عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ". مَا أَرَادَ قَوْلُهُ بِذَلِكَ هُوَ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ لِأَيِّ شَيْءٍ أَنْ يُوْجَدَ بِدُونِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وُجُودٌ نَفْيِيٌّ، وَوُجُودٌ كَامِلٌ، بِدُونِ أَيِّ ظِلِّ دَوْرَانٍ. اعْتَرَضَ هِرْفَلِيطُسُ عَلَى كَلَامِهِ، قَائِلًا: "لا، لا، لا". كُلُّ مَا نَدْرُسُهُ فِي الْعَالَمِ مِنْ حَوْلِنَا لَدَيْهِ قَاسِمٌ مُشْتَرَكٌ وَاحِدٌ. يَحْتَلِفُ الدُّبُّ عَنِ الرَّجْسِ اخْتِلَافًا جَدْرِيًّا، لَكِنَّ الْأَمْرَ الْوَاحِدَ الْمُسْتَرَكَّ بَيْنَ الدُّبِّ وَالرَّجْسِ هُوَ أَنَّ كُلَّ الْأَشْيَاءِ فِي عَالَمِ الْمَخْلُوقَاتِ هِيَ فِي حَالَةٍ صَيْرُورَةٍ". قَالَ هِرْفَلِيطُسُ: "لَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تَخْطُوَ فِي النَّهْرِ نَفْسِهِ مَرَّتَيْنِ. كُلُّ شَيْءٍ هُوَ فِي حَالَةٍ تَغْيِيرٍ مُسْتَمِرٍّ" مَا الَّذِي فَصَدَهُ بِذَلِكَ؟ قَالَ: "النَّهْرُ يَجْرِي عَلَى طُولِ ضِفَّتَيْهِ. أَنْتَ تَضَعُ قَدَمًا فِيهِ فَتُبَلِّلُ أَصَابِعَ قَدَمِكَ بِمِيَاهِهِ، وَحِينَ تَهْمُ لِتَضَعُ الْقَدَمَ الْأُخْرَى فِيهِ تَكُونُ الْمِيَاهُ قَدْ تَحَرَّكَتْ، وَيَكُونُ النَّهْرُ قَدْ تَغَيَّرَ. لَيْسَ هَذَا فَحَسْبُ، أَنْتَ تَغَيَّرْتَ أَيْضًا".

الْيَوْمَ، كَانَتْ فَيْسَتَا تَسْتَخْرِجُ كُلَّ أَنْوَاعِ الصُّورِ الَّتِي تَمَّ التِّقَاطُهَا عَلَى مَدَى السَّنَوَاتِ الْأَرْبَعِينَ الْمَاضِيَةِ فِي خِدْمَةِ لِيْجُونِيِيرِ. فَضْلًا عَنِ بَعْضِ الصُّورِ لِي، وَيُمْكِنُ لِلْعَيْنِ الْمُجَرَّدَةِ أَنْ تَرَى كَيْفَ أَيُّ تَغْيِيرٍ تَغْيِيرًا جَدْرِيًّا خِلَالَ تِلْكَ السَّنَوَاتِ الْأَرْبَعِينَ. فَالْيَوْمَ، أَنَا مُخْتَلِفٌ عَمَّا كُنْتُ عَلَيْهِ فِي الْأَمْسِ. إِذَا تَقَدَّمْتُ يَوْمًا وَاحِدًا فِي السِّنِّ وَازْدَادَتْ شَعْرَةٌ وَاحِدَةٌ بِيَاضًا وَازْدَادَتْ جُرَيْئَةٌ وَاحِدَةٌ ضَعْفًا، فَإِنِّي أَكُونُ قَدْ اقْتَرَبْتُ خُطْوَةً وَاحِدَةً مِنْ رَحِيلِي. وَمَا يَنْطَبِقُ عَلَيَّ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ يَنْطَبِقُ عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا. وَالْقَاسِمُ الْمُسْتَرَكَّ بَيْنَ كُلِّ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ فِي حَالَةٍ صَيْرُورَةٍ، وَجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَى الَّتِي هِيَ فِي حَالَةٍ صَيْرُورَةٍ يَتَمَثَّلُ بِكَلِمَةٍ مُهِمَّةٍ وَاحِدَةٍ: التَّغْيِيرُ.

كُلُّ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ، حِينَ يَتِمُّ إِجْرَاءُ الْاِنْتِخَابَاتِ الرَّئِاسِيَّةِ فِي الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمِيرِكِيَّةِ، يَبْنِي بَعْضُ الْمُرَشَّحِينَ حَمَلَتَهُمْ عَلَى أَسَاسِ الْوَعْدِ بِإِحْدَاثِ تَغْيِيرٍ. حَانَ وَقْتُ التَّغْيِيرِ. وَيَتِمُّ الْاِفْتِرَاضُ أَنَّ أَيَّ تَغْيِيرٍ يَحْدُثُ سَيَكُونُ إِجْجَابِيًّا، لَكِنَّ لَيْسَتْ هَذِهِ الْحَالُ. نَحْنُ نَعْلَمُ جَمِيعًا أَنَّ الْأُمُورَ تَتَغَيَّرُ فِي حَيَاتِنَا، وَهِيَ لَا تَتَغَيَّرُ دَائِمًا نَحْوَ الْأَفْضَلِ، فَهِيَ تَتَغَيَّرُ أَحْيَانًا نَحْوَ الْأَسْوَأِ. إِذَا، تَمَّ التَّعْرِيفُ عَنَّا عَلَى أَنَّنا مَخْلُوقَاتٌ عَلَى أَسَاسِ مَبْدَأِ التَّغْيِيرِ، وَهَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ. وَنَحْنُ نُعَبِّرُ عَنِ هَذَا الْاِخْتِلَافِ قَائِلِينَ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْكَائِنُ الْأَسْمَى وَنَحْنُ كَائِنَاتٌ بَشَرِيَّةٌ. إِذَا، نَحْنُ نَعْتَقِدُ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ اللَّهِ يَكْمُنُ فِي تِلْكَ الصِّفَاتِ الَّتِي تُمَيِّزُ مَفْهُومَ الْكَيْنُونَةِ؛ هُوَ سَامٍ وَنَحْنُ بَشَرٌ.

لَكِنَّ هَلْ تَعْرِفُونَ مَا هُوَ الْفَرْقُ الْحَقِيقِيُّ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ؟ إِنَّهَا الْكَيْنُونَةُ. هُوَ وَحْدَهُ يَتَمَتَّعُ بِالْكَيْنُونَةِ بِذَاتِهِ، هُوَ وَحْدَهُ يَتَمَتَّعُ بِالْكَيْنُونَةِ السَّرْمَدِيَّةِ. أَمَّا الْكَيْنُونَةُ الَّتِي أَتَمَتَّعُ بِهَا، فَهِيَ مُوقَّتَةٌ. الْكَيْنُونَةُ الَّتِي أَتَمَتَّعُ بِهَا هِيَ تَابِعَةٌ، إِنَّهَا مَشْرُوطَةٌ،

إِنَّهَا مُشْتَقَّةٌ، إِنَّهَا مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْكَيْنُونَةِ النَّفِيَّةِ. لَذَا قَالَ الرَّسُولُ بُولُسُ لِفَلَسِيفَةِ أَثِينَا عَنِ اللَّهِ "بِهِ نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ". سَأَصِفُ الْأَمْرَ بِطَرِيقَةٍ أُخْرَى. بِدُونِهِ، لَمَا كَانَ يُمْكِنُنَا أَنْ نَحْيَا، لَكَانَ وَجُودُنَا جَامِدًا وَسَاكِنًا، وَلَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَتَحَرَّكُ، لَتَجَمَدَتِ الْكَوَاكِبُ فِي مَسَارِهَا لِأَنَّ حَرَكَتَهَا لَيْسَتْ مُسْتَقَلَّةً. فِي الْبَدءِ، هِيَ كَانَتْ فِي هَذَا الْكُونِ الشَّاسِعِ فِي حَالَةٍ قُصُورٍ ذَاتِيٍّ. فَهَمَّ أَرِسْطُو هَذَا الْأَمْرَ. لِكَيْ يَتَحَرَّكُ أَيُّ جِسْمٍ فِي هَذَا الْعَالَمِ، يَجِبُ أَنْ يُحَرِّكَهُ جِسْمٌ آخَرَ غَيْرُهُ. إِذَا، تَعْتَمِدُ حَرَكَتُنَا عَلَى كَيْنُونَةِ اللَّهِ. "بِهِ نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ".

اسْمَحُوا لِي بِقَوْلِ هَذَا الْأَمْرِ. نَحْنُ نُنَاقِشُ دَائِمًا كَيْفِيَّةَ التَّمَكُّنِ مِنْ إِثْبَاتِ وَجُودِ اللَّهِ. إِذَا حَدَدْنَا اللَّهُ عَلَى أَنَّهُ كَائِنٌ سَرْمَدِيٌّ، تَنْبَثِقُ مِنْهُ كُلُّ الْأَشْيَاءِ، وَتَعْتَمِدُ عَلَيْهِ كُلُّ الْأَشْيَاءِ، أَعْتَقِدُ أَنَّهُ يُمْكِنُ إِثْبَاتُ صِحَّةِ هَذَا الْقَوْلِ بِدُونِ أَدْنَى شَكٍّ وَبِشَكْلِ مُفْنِعٍ فِي عُضُودِ عَشْرِ نَوَانٍ، عَشْرِ نَوَانٍ. لَيْسَ عَلَيْنَا الْقَفْزُ فِي هَاوِيَةِ الظُّلْمَةِ وَالْقِيَامُ بِحُطُوةِ إِيْمَانٍ لِقَبُولِ اللَّهِ، الْأَمْرَ مُفْنِعٍ بِشَكْلِ مَنْطِقِيٍّ. كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ؟ إِذَا كَانَ أَيُّ شَيْءٍ مَوْجُودًا، أَيُّ شَيْءٍ، هَاتَانِ النَّظَارَتَانِ مَثَلًا، فَإِنَّ شَيْئًا مَا فِي مَكَانٍ مَا وَبَطَرِيقَةٍ مَا لَا بُدَّ أَنَّهُ يَتَمَتَّعُ بِقُوَّةِ الْكَيْنُونَةِ فِي ذَاتِهِ. بِدُونِ ذَلِكَ، لَا يُمْكِنُ لِأَيِّ شَيْءٍ أَنْ يُوْجَدَ. أَكْرُرُ، إِذَا كَانَ هُنَاكَ وَقْتُ لَمْ يَكُنْ يُوْجَدُ فِيهِ أَيُّ شَيْءٍ، تَخَيَّلُوا فَرَاغًا شَاسِعًا فِي الْكُونِ، ظُلْمَةً تَامَةً، لَا شَيْءَ، لَا نُجُومَ، لَا بَشَرَ، لَا مَحْيِطَاتٍ، مَاذَا كَانَ لِيُوْجَدَ الْآنَ؟ لَا شَيْءَ.

سَنَسْتَفِيضُ فِي الْحَدِيثِ عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي مُحَاضَرَتِنَا الْمُقْبِلَةِ.

الدكتور آر. سي. سبرول هُوَ مُؤَسَّسُ هَيْئَةِ خَدَمَاتِ لِيْجُونِيرِ، وَكَانَ أَحَدَ رُعَاةِ كَنِيسَةِ الْقَدَيْسِ أَنْدُرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلْإِصْلَاحِ (Reformation Bible College). وَهُوَ أَلْفَ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كُلُّنَا لَاهُوتِيُّونَ" (Everyone's A Theologian).